﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الصافات: 11 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تقريرُ البَعْثِ والقيامةِ بعدَ تقريرِ الرُّبوبيَّةِ والوحدانيَّةِ

افتتحَ ﷻ هذهِ السّورةَ بإثباتِ ما يدلُّ على وجودِهِ ووحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ، وهو خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وخَلْقُ المشارقِ، ثمَّ أثبتَ في هذهِ الآياتِ وما بعدَها الحَشْرَ والنَّشْرَ، وقيامَ السّاعةِ، ببيانِ أنَّ مَنْ خلقَ هذهِ العوالمَ الَّتي هي أصعبُ في الخلقِ مِنَ النّاسِ؛ فهو قادرٌ على إحيائِهم بعدَ موتِهم بطريقِ الأولى[1].

ذكرُ شُبُهاتِ المُنكِرينَ بعدَ تقريرِ البَعْثِ والنُّشورِ

ولمّا قرَّرَ ﷻ الدَّليلَ القاطعَ على إثباتِ إمكانِ البَعْثِ والقيامةِ؛ حكَى عن المُنكِرينَ أشياءَ، مِنَ الآيةِ (12) إلى الآيةِ (17)، ووصفَهم بأوصافٍ تُبيِّنُ سببَ تكذيبِهم بالبعثِ والنُّشورِ[2].

ذِكْرُ وقوعِ البعثِ بعدَ الإخبارِ بإنكارِهِ

ولمّا بالغَ المشركونَ في إنكارِ البعثِ بعدَ قيامِ البراهينِ في هذهِ السّورةِ وغيرِها على وقوعِهِ؛ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بأنْ يُجيبَهم بالوقوعِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾: (فتي) أصلٌ يدلُّ على تبيينِ حُكمٍ[4]، ومِنَ ذلكَ: الإفتاءُ، وهو جوابُ السّائلِ عمّا يُشكِلُ عليهِ، والمُفتي: هو مَنْ يُزيلُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 324، 325.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتي).

إشكالَ المسائلِ، ويوضِّحُ الأحكامَ، ويقالُ: استفتيتُهُ فأفتاني بكذا[1]. والمرادُ بالاستفتاءِ هنا: الاستخبارُ عن أمرٍ حدثَ[2]، وطلبُ الإجابةِ عن المسؤولِ عنهُ.

2) ﴿أَشَدُّ﴾: (شدّد) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الشِّدَّةُ، وهي الصَّلابةُ، والنَّجْدةُ، وثباتُ القلبِ، والمجاعةُ، ويقالُ: رجلٌ شديدٌ، أي: شجاعٌ[4]، وشدَّ اللّهُ مُلْكَهُ، وشدَّدَهُ: قوّاهُ[5]. ومعنى ﴿أَشَدُّ﴾ هنا: أقوى، أو أصعبُ[6].

3) ﴿لَّازِبٍ﴾: (لزب) أصلٌ يدلُّ على ثبوتِ شيءٍ ولُزومِهِ[7]، ومِنْ ذلكَ: اللّازبُ، وهو الثّابتُ الشَّديدُ الثُّبوتِ[8]، ويُعبَّرُ بهِ أيضًا عن الواجبِ، فيُقالُ: ضربةٌ لازبٌ[9]، والمرادُ بالطّينِ اللّازبِ هنا: الطّينُ اللّاصقُ[10] المتماسكُ الَّذي فيهِ قوَّةُ الالتصاقِ بالأشياءِ.

4) ﴿عَجِبْتَ﴾: (عجب) أصلٌ يدلُّ على كِبْرٍ واستكبارٍ للشَّيءِ[11]، يقالُ لمَنْ تَروقُهُ نفسُهُ: فلانٌ مُعجَبٌ بنفسِهِ، والعَجَبُ والتَّعجُّبُ: حالةٌ تَعْرِضُ للإنسانِ عندَ الجهلِ بسببِ الشَّيءِ[12]. وقولُهُ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ معناهُ: أنَّ حالَهم حَريَّةٌ بالتَّعجُّبِ[13].

5) ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، ومِنْ ذلكَ: تسخيرُ اللّهِ ﷻ الشَّيءَ، وذلكَ إذا ذلَّلَهُ لأمرِهِ وإرادتِهِ[14]، والسُّخريةُ: الاستهزاءُ[15]. ومعنى ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: ويستهزؤونَ[16].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتي).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدد).
(4) الخليل، العين: (شدد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (شدد).
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 45.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لزب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (لزب).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (لزب).
(10) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجب).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 96.
(14) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(15) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(16) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 45.

6) ﴿دَاخِرُونَ﴾: (دخر) أصلٌ يدلُّ على الذُّلِّ والصَّغارِ[1]، ودَخَرَ الرجلُ، بالفَتْحِ، يَدْخَرُ دُخُوراً، فَهُوَ دَاخِرٌ، ودَخِرَ دَخَراً: ذَلَّ وصَغُرَ يَصْغُرُ صَغَاراً، وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ، شَاءَ أَو أَبى صاغِراً قَمِيئاً. والدَّخَرُ: التَّحَيُّرُ[2]. والدُّخُورُ: الصَّغَارُ وَالذُّلُّ، ومنهُ يقالُ: أَدْخَرْتُهُ فَدَخَرَ، أي: أذلَلْتُهُ فذَلَّ[3]. والمرادُ بالدّاخرينَ: الصّاغرونَ الأذِلّاءُ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامةُ الحُجَّةِ على مُنكري البعثِ

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يسألَ المشركينَ تبكيتًا لهُم، فيقولُ: فاسألْ يا محمَّدُ هؤلاءِ المشركينَ الَّذي يُنكِرونَ البعثَ والنُّشورَ: أهُمْ أقوى أو أصعبُ خلقًا؟ أم مَنْ خلَقْنا مِنَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، والنُّجومِ والكواكبِ، والشَّياطينِ والشُّهُبِ؟! إنّا خلَقْنا هؤلاءِ المُكذِّبينَ مِنْ طينٍ لاصِقٍ متماسكٍ[5].

أحوالُ المُنكِرينَ وشُبَهُهم في إنكارِ البعثِ

ثمَّ يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ نبيَّهُ ببعضِ أحوالِ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، فيقولُ: بل عجبتَ يا محمَّدُ مِنْ تكذيبِ هؤلاءِ المُنكِرينَ للبعثِ، وهم مِنْ شدَّةِ تكذيبِهم يسخرونَ ممّا تقولُ لهُم، وإذا وُعِظوا بموعظةٍ لا يتَّعظونَ بها، وإذا رأوْا حُجَّةً مِنْ حُجَجِ اللّهِ عليهِم يسخرونَ منها، وقالوا: ما هذا إلّا سِحْرٌ ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، لا شكَّ في كونِهِ سِحْرًا، ويزيدونَ في إنكارِ البعثِ، فيقولونَ: أنُبْعَثُ بعدَ موتِنا وصيرورتِنا ترابًا وعظامًا؟! ويُبْعَثُ آباؤُنا الأقدمونَ أيضًا؟![6].

صَغارُ المشركينَ يومَ الحَشْرِ

ثمَّ أمرَهُ تعالى أنْ يُجيبَهم بوقوعِهِ، فقالَ: قلْ لهُم نعم، أنتم

(1) الخليل، العين: (دخر)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دخر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دخر).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 19، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 7، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 445.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 19، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 8.

مبعوثونَ بعدَ موتِكم ومصيرِكم تُرابًا وعظامًا، وأنتم في هذا الحشرِ صاغرونَ أذِلّاءُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ:

خلقُ السَّماواتِ والأرضِ أكبرُ مِنْ خلقِ النّاسِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فصيحةٌ، تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كانَ لنا مِنَ المخلوقاتِ ما سمعتَ، أو إذا عرفتَ ما مرَّ؛ فاستخبِرْ[2]، أو تفريعٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ باعتبارِ ما يقتضيهِ مِنْ عظيمِ القدرةِ على الإنشاءِ، أي: فسَلْهم عن إنكارِهمُ البعثَ بعدَ أنْ يصيروا عِظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينَئذٍ أشدُّ علينا أم خَلْقُ تلكَ المخلوقاتِ العظيمةِ؟[3].

دلالةُ الأمرِ بالاستفتاءِ:

الأمرُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ تبكيتِ المشركينَ يقتضيهِ ويستدعيهِ.

علمُ المشركينَ حُجَّةٌ عليهِم

والاستفتاءُ في الأصلِ: طلبُ الفَتْوَى، وهي إخبارٌ عن أمرٍ يَخفَى عن غيرِ الخواصِّ في غرضٍ ما، وهي: إمّا إخبارٌ عن علمٍ مُختصٍّ بهِ المُخبِرُ، وإمّا إخبارٌ عن رأيٍ يُطلَبُ مِنْ ذي رأيٍ موثوقٍ بهِ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاسألْهم عن رأيِهم، فلمّا كانَ المسؤولُ عنهُ أمرًا محتاجًا إلى إعمالِ نظرٍ؛ أُطلِقَ على الاستفهامِ عنهُ فعلُ الاستفتاءِ[4]. وأيضًا الاستفتاءُ سؤالُ مَنْ يُجعَلُ قولُهُ حُجَّةً، وكذلكَ هي أقوالُهم؛ لأنَّهم لا يمكنُهم أنْ يقولوا إلّا أنَّ خلْقَ مَنْ سواهم مِنَ الملائكةِ والجنِّ والسَّماواتِ والأرضِ والمشارقِ وغيرِ ذلكَ هو أشدُّ مِنْ خَلْقِ هؤلاءِ المُخاطَبينَ[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24 - 25، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 8.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 467.

نُكتةُ التّعبير بصيغةِ الاستفعالِ:

طلبُ جوابِ المشركينَ عن السُّؤالِ المذكورِ

السّينُ والتّاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ للطَّلبِ، وهي تُفيدُ طلبَ الإفتاءِ، أي: طلبَ الإجابةِ على السُّؤالِ المذكورِ؛ لأنَّهُ سؤالٌ مُهِمٌّ فيهِ دليلٌ على رُبوبيَّةِ اللّهِ تعالى ووحدانيَّتِهِ.

مرجعُ الضَّمائرِ في ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾:

النَّبيُّ هو المأمورُ بسؤالِ مشركي مكَّةَ

ضميرُ الخِطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وأمّا ضميرُ الغَيبةِ فهو عائدٌ إلى غيرِ مذكورٍ؛ للعِلْمِ بهِ مِنْ دلالةِ المقامِ، وهم الَّذينَ أحالوا إعادةَ الخَلْقِ بعدَ المماتِ[1]، وهم مشركو مكَّةَ[2]، وإنْ لوحِظَ ارتباطُ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ يكونُ التفاتًا[3].

بلاغةُ الاستفهامِ:

تقريرُ المشركينَ وتوبيخُهم

الهمزةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمۡ مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ خرجَتْ عن موضوعِها الأصليِّ – وهو الاستفهامُ – إلى تقريرِ ما هو ثابتٌ معلومٌ[4]؛ لأنَّ هذا الأمرَ المسؤولَ عنهُ مُقرَّرٌ مُعيَّنٌ، لم يَحتجْ إلى أنْ يُستفهمَ عنهُ، لكنْ أُجريَتِ الهمزةُ على الاستفهامِ ظاهرًا؛ ليُجعَلَ المُقرَّرُ غيرَ مُقرَّرٍ، فيَصِحَّ دخولُ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ عليهِ، والفائدةُ الإنكارُ على المشركينَ وتوبيخُهم[5].

غرضُ تقديمِ ﴿أَهُمۡ﴾:

المُقرَّرُ بهِ هو ما يَلي الهمزةَ

قُدِّمَ ﴿أَهُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمۡ مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾؛ لأنَّ تقديمَهُ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، ولأنَّ المرادَ تقريرُ المشركينَ بأنَّ خلقَهم أهوَنُ مِنْ خَلْقِ غيرِهم، فقُدِّمَ ما هو مَناطُ التَّقريرِ؛ إذِ المُقرَّرُ بهِ هو ما يَلي الهمزةَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 125.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

خُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا

قولُهُ تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: أقوى وأمتنَ بِنْيةً، مِنْ قولِهم: شديدُ الخَلْقِ[1]، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ خلقَ الإنسانِ ضعيفٌ إذا ما قورِنَ بغيرِهِ مِنَ المخلوقاتِ المذكورةِ.

كـلُّ خَـلْـقٍ فهو على الله هيّن

ويحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: أصعبَ، فيُفيدُ الرَّدَّ لإنكارِهم البعثَ، ببيانِ أنَّ مَنْ هانَ عليهِ خَلْقُ هذهِ الخلائقِ العظيمةِ، ولم يَصعُبْ عليهِ اختراعُها؛ كانَ خَلْقُ البشرِ عليهِ أهوَنَ[2].

بلاغةُ التَّمييزِ:

الإنسانُ دونَ السَّماواتِ والأرضِ مِنْ جهةِ الخَلْقِ يقينًا

جيءَ بأسلوبِ التَّمييزِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الإجمالِ والتَّفصيلِ المُفيدَينِ للتَّشويقِ للمميِّزِ، وتقرُّرِهِ عندَ ورودِهِ على النَّفسِ، ولِما فيهِ مِنَ الاختصارِ الملائمِ لِما بُنِيَتْ عليهِ الآياتُ مِنَ الإيجازِ؛ إذ لم يُقَلْ: (أخلقُهم أشدُّ أم خلقُ مَنْ خلقْنا).

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَلْقًا﴾:

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿خَلْقًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: أيُّهم أشدُّ مِنْ جهةِ إحكامِ الصَّنعةِ وقوَّتِها وعِظَمِها.

معنى ﴿أَم﴾:

خلقُ اللهِ تعالى أشـدُّ مِـنْ كـلِّ خلقٍ

﴿أَم﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ متَّصلةٌ، عطفَتْ ﴿مَّنْ﴾ على (هم)، وهي الَّتي تُسمَّى المعادلةَ، عادلَتْ في هذا الاستفهامِ التَّقريريِّ في الأشدّيَّةِ بينَهم وبينَ مَنْ خُلِقَ مِنْ غيرِهم مِنَ الأممِ والجنِّ والملائكةِ والأفلاكِ والأرَضينَ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

مقـامُ الـسُّـؤالِ مقامُ إيجازٍ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للاختصارِ؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 93، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 295.

لأنَّ تعريفَهُ عهديٌّ أُشيرَ بهِ - على الأظهرِ - إلى ما تقدَّمَ، مِنَ الملائكةِ والسَّماءِ والأرضِ وما بينَهما، والمشارقِ والكواكبِ والشُّهُبِ الثَّواقبِ، والشَّياطينِ المَرَدةِ[1]، فيكونُ فعلُ ﴿خَلَقْنَآ﴾ مطلقًا محمولًا على هذا المُقيَّدِ[2]، ومقامُ السُّؤالِ مقامُ إيجازٍ؛ ليَعيَ المسؤولُ السُّؤالَ ويجيبَ عنهُ.

نُكْتَةُ تغليبِ العاقلِ:

العُقَلاءُ أشرفُ مِنْ غيرِهم

قولُهُ تعالى: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يشملُ الملائكةَ والسَّماءَ والأرضَ وما بينَهما، والمشارقَ والكواكبَ والشُّهُبَ الثَّواقبَ، والشَّياطينَ المَرَدةِ، وقد عُبِّرَ فيهِ بـ ﴿مَّنْ﴾ الَّتي تُستعمَلُ للدّلالةِ على العاقلِ؛ تغليبًا للعُقَلاءِ على غيرِهم[3]؛ لأنَّهم أشرفُ[4].

براعةُ صيغةِ الماضي:

تقريرُ المشركينَ بما يعلمونَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿خَلَقْنَآ﴾، وقولِهِ: ﴿خَلَقْنَـٰهُم﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا الخَلْقَ قد وقعَ وتحقَّقَ، وهم يشاهدونَهُ على الدَّوامِ، ويعلمونَ أنَّ خلقَهم دونَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما ذُكِرَ سابقًا مِنْ حيثُ القوَّةُ أو الصُّعوبةُ، ولذلكَ قُرِّروا بهذا السُّؤالِ؛ ليُجيبوا بما هم مُعترفونَ بهِ.

بلاغةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

خَلْقُ العظيمِ عظيمٌ

عُبِّرَ بضميرِ العَظَمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَآ﴾، وقولِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الخَلْقِ بأنَّهُ فعلُ القديرِ العظيمِ ﷻ[5]، وفي ذلكَ تقويةٌ لمقامِ الاستدلالِ على البعثِ والقيامةِ، وتعظيمٌ للمِنَّةِ عليهِم بنعمةِ خلقِهم وإيجادِهم، وخَلْقِ ما حولَهم ممّا ينتفعونَ بهِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 73.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 126.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.

نُكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الخَلْقِ:

كـلُّ المـوجـوداتِ مـخـلـوقـةٌ لـلـهِ تعالى

اقتُصِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَآ﴾ على الفاعلِ، ولم يُذكَرْ مُتعلَّقُ الخَلْقِ؛ اكتفاءً ببيانِ ما تقدَّمَهُ، وكأنَّهُ قيلَ: أم مَنْ خلَقْنا مِنْ غرائبِ المصنوعاتِ وعجائبِها[1]، وللإعلامِ بأنَّهُ لا شيءَ مِنَ الموجوداتِ إلّا وهو خَلْقُهُ ﷻ[2].

سرُّ حذفِ جوابِ المشركينَ:

الحقُّ أبلجُ

لم يُذكَرْ في الآيةِ أنَّ المشركينَ أقرّوا أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ أشدُّ، أو أصعبُ مِنْ خلقِهم؛ لأنَّ ظهورَ ذلكَ كالمعلومِ بالضَّرورةِ، فلا حاجةَ للتَّنصيصِ عليهِ[3]، وهذا مِنَ الإيجازاتِ البديعةِ في القرآنِ الكريمِ.

نُكتةُ فصلِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾:

مَـنْ خُـلِـقَ مِـنْ طينٍ هانَ بَعْثُهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ في موضعِ التَّعليلِ لِما يتولَّدُ مِنْ معنى الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، بأنَّهم أضعفُ خَلْقًا مِنْ خَلْقِ السَّماواتِ وعوالِمِها؛ احتجاجًا عليهِم بأنَّ تَأتّيَ خَلْقِهم بعدَ الفَناءِ أهوَنُ مِنْ تَأتّي المخلوقاتِ العظيمةِ المذكورةِ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِنْ طينٍ، فكيفَ يُحيلونَ البَعْثَ؟![4].

غرضُ التَّأكيدِ بـ (إنّ):

مَـنْ أنكرَ البعثَ فـكـأنَّـمـا أنـكـرَ الخَلْقَ

أُكِّدَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ؛ للدّلالةِ على أنَّ خلقَهم مِنْ طينٍ أمرٌ مُقرَّرٌ معلومٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، فينبغي عليهِم أنْ يَبْنوا عليهِ أنَّ بعثَهم أمرٌ يسيرٌ، وللتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهمُ البَعْثَ لاستبعادِهم تمييزَ التُّرابِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 93.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 322.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.

مِنَ التُّرابِ؛ يَلْزَمُ منهُ إنكارُ ابتداءِ الخَلْقِ[1]، ولذلكَ خوطِبوا خطابَ المُنكِرِ للخلقِ، وإنْ لم يكونوا كذلكَ.

نكتةُ إيقاعِ الخَلْقِ مِنْ طينٍ على جميعِ النّاسِ:

أُضيفَ الخَلْقُ مِنْ طينٍ إلى جميعِ النّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ مِنْ حيثُ إنَّ الأبَ - وهو آدمُ عليه السلام - مخلوقٌ منهُ[2]، فيكونُ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم﴾ إمّا مجازٌ في الإسنادِ والإيقاعِ، أو مجازٌ في الحذفِ، أي: خلَقْنا أباهم[3]، فإذا كانَ أصلُهم قد خُلِقَ مِنْ ترابٍ فكيفَ يُنكِرونَ إمكانَ إعادةِ كلِّ آدميٍّ مِنْ ترابٍ؟![4].

أبو البَشَرِ مخلوقٌ مِنْ طينٍ

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

تنكيرُ ﴿طِينٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: مِنْ نوعٍ مِنْ أنواعِ الطّينِ، بدليلِ وصفِهِ بكونِهِ لازبًا، أو للتَّحقيرِ، أي: مِنْ طينٍ مَهينٍ[5]، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ الاستدلالِ على البعثِ؛ إذ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِهم مِنْ هذهِ المادَّةِ الضَّعيفةِ، فهو قادرٌ على بَعْثِهم بعدَ الفَناءِ، وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى كَسْرِ جماحِ الكِبْرِ في نفوسِهم، بتذكيرِهم بأنَّهم مخلوقونَ ممّا هو غايةٌ في السُّفولِ[6]، ويوطَأُ بالأقدامِ.

أصلُ نشأةِ الإنسانِ مَهينٌ

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿لَّازِبٍ﴾:

وُصِفَ الطّينُ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بكونِهِ لازبًا؛ لمزيدِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهِم بضَعْفِ أصلِ نشأتِهم؛ إذِ المعنى: خلَقْناهم مِنْ طينٍ شديدٍ اختلاطُ بعضِهِ ببعضٍ، بحيثُ التصقَ وضَمُرَ[7].

شدَّةُ ضَعْفِ أصلِ الإنسانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 467.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 231.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.

بلاغةُ اسمِ الفاعلِ:

رسـوخُ الطّـينِ في الاتّـصـاف باللُّزوبةِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ لُزوبَ الطّينِ الَّذي خُلِقوا منهُ أمرٌ ثابتٌ، وأنَّ الطّينَ راسخٌ في اتِّصافِهِ بهذهِ الصِّفةِ؛ وذلكَ يلائمُ مقامَ تهوينِ شأنِ البَعْثِ.

دلالةُ ﴿بَلْ﴾:

المـشـركـونَ لا يـنـفـعُ فـيـهـم التَّقريرُ

﴿بَلْ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ إضرابٌ عن الأمرِ بالاستفتاءِ، أي: لا تَسْتَفْتِهم؛ فإنَّهم معاندونَ مكابرونَ، لا ينفعُ فيهم الاستفتاءُ، ولا يتعجَّبونَ مِنْ قدرةِ اللّهِ على خَلْقِ هذهِ المذكوراتِ، وعلى قدرتِهِ على بَعْثِكم؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، وإنَّما يتعجَّبُ مِثْلُكَ ممَّنْ لهُ إنصافٌ ونظرٌ صحيحٌ[1]، أو هي إضرابٌ عن مُقدَّرٍ دلَّ عليهِ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، أي: (هم لا يُقِرّونَ بل... إلخ)[2]، أو هي إضرابٌ انتقاليٌّ مِنَ التَّقريرِ التَّوبيخيِّ إلى بيانِ أنَّ حالَهم عجيبٌ[3].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿عَجِبْتَ﴾ وبلاغتها:

حـالُ المشركينَ مـــعَ الـحـقِّ محلُّ استنكارٍ واستعظامٍ

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿عَجِبْتُ﴾ بضمِّ التّاءِ، وقرأ الباقونَ بفتحِها[4]. أمّا قراءةُ الضَّمِّ فهي بمعنى: بل عَظُمَ عندي اتِّخاذُهم لي شريكًا، وتكذيبُهم بآياتي[5]، أو بمعنى: بلغَ مِنْ عِظَمِ آياتي وكثرةِ خلائقي أنَّي عَجِبْتُ منها، فكيفَ بعبادي؟ وهؤلاءِ بجهلِهم وعنادِهم يسخرونَ مِنْ آياتي، أو عَجِبْتُ مِنْ أنْ يُنكِروا البَعْثَ ممَّنْ هذهِ أفعالُهُ، وهم يسخرونَ ممَّنْ يصفُ اللّهَ بالقدرةِ عليهِ[6]. وليسَ المرادُ بعجبِ اللّهِ حقيقةَ العَجبِ المُستلزمةَ المفاجأةَ بأمرٍ غيرِ مُترقَّبٍ؛ لأنَّهُ سبحانَهُ لا تخفَى عليهِ خافيةٌ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 129، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 231.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 356.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 22.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.

بل المرادُ التَّعجيبُ، أو الكنايةُ عن لازمِهِ، وهو استعظامُ الأمرِ المُتعجَّبِ منهُ[1].

وأمّا قراءةُ الفتحِ فهي بمعنى: بل عَجِبْتَ أنتَ يا محمَّدُ مِن اتِّخاذِهم لي شريكًا، وتكذيبِهم بآياتي[2]، أو بمعنى: بل عَجِبْتَ مِنْ قدرةِ اللّهِ على هذهِ الخلائقِ العظيمةِ، وهم يسخرونَ منكَ ومِنْ تعجُّبِكَ، وممّا تُريهم مِنْ آثارِ قدرةِ اللّهِ، أو مِنْ إنكارِهم البَعْثَ، وهم يسخرونَ مِنْ أمرِ البَعْثِ[3].

حـالُ المشركينَ غايةٌ في العجبِ

الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿عَجِبْتَ﴾ على قراءةِ الفتحِ؛ للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ مَنْ يقبلُهُ[4]، فيُفيدُ الكلامُ على هذا الاحتمالِ أنَّ حالَ المشركينَ العجيبَ قد اشتهرَ، حتَّى صحَّ أنْ يُخاطَبَ بهِ كلُّ مَنْ يتأتَّى منهُ فهمُ الخطابِ.

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

حـالُ المشركينَ حَريَّةٌ بالتَّعجُّبِ

يحتملُ أنْ يكونَ الفعلُ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿عَجِبْتَ﴾ مُستعمَلًا في معنى الأمرِ، وهو مِن استعمالِ الخبرِ في معنى الطَّلبِ للمبالغةِ، والمعنى: اعجَبْ لهُم. ويجوزُ أنْ يكونَ العجبُ قد حصلَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ لمّا رأى إعراضَهم وقِلَّةَ إنصافِهم، فيكونُ الخبرُ مُستعمَلًا في حقيقتِهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ على تقديرِ همزةِ الاستفهامِ، أي: بل أعَجِبْتَ. والمعنى على الجميعِ: أنَّ حالَهم جديرةٌ بالتَّعجُّبِ[5].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾:

الاستهزاءُ بالحقِّ شيمةُ أهلِ الجهلِ والعنادِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ للحالِ، أي: عَجِبْتَ منهُم في حالِ سُخريتِهم[6]، وأيًّا ما كانَ فالكلامُ ظاهرُ الدّلالةِ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 263.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.

موقفَهم مِنَ الحقِّ هو الاستهزاءُ والسُّخريةُ؛ فالاستهزاءُ بالحقِّ شيمةُ أهلِ الجهلِ والعنادِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

المشركونَ أُشْرِبوا حُبَّ الاستهزاءِ بالحقِّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ السُّخريةِ مِنَ المشركينَ كلَّما جاءَتْهم حُجَّةٌ، وأنَّهم لا يَرْعَوونَ عن ذلكَ[1]؛ لأنَّ نفوسَهم قد ضَرِيَتْ بمعاداةِ الحقِّ، وقلوبَهم قد ختمَ عليها الكِبْرُ والعنادُ، فلا يصلُ إليها نورُ الحقِّ، إلّا مَنْ شاءَ اللّٰهُ تعالى لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ، وتداركَهُ بلُطْفِهِ ورحمتِهِ.

دلالةُ الواوِ:

عدمُ التَّذكُّرِ مِنْ قبائحِ المشركينَ

الواوُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونُكتةُ العطفِ: بيانُ أنَّ شأنَهم معَ الحقِّ هو الاستهزاءُ والسُّخريةُ، وأنَّهم لا يتَّعظونَ بما يُذكَّرونَ بهِ، فهو حكايةٌ لقبيحةٍ أُخرى مِنْ قبائحِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

فَرْطُ كِبْرِ المشركينَ وعنادِهم علَّةُ إعراضِهم

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عدمَ تذكُّرِهم مُترتِّبٌ على تذكيرِهم دائمًا، لا يتخلَّفُ عنهُ، فكلَّما ذُكِّروا أعرضوا، ولم يَذْكُروا، ولا يُتوقَّعُ منهُم غيرُ ذلكَ؛ وهذا لفَرْطِ كِبْرِهم وعنادِهم، إلّا مَنْ شاءَ اللّٰهُ هدايتَهُ بعدَ ذلكَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

إعراضُ المشركينَ عادةٌ لهُمُ استحقّوا بسببِها الذَّمَّ

عُبِّرَ بـ (إذا) دونَ (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ﴾، معَ أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ هنا أنَّ ترتُّبَ عدمِ تذكُّرِهم على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

تذكيرِهم أمرٌ مقطوعٌ بهِ؛ لأنَّ عدمَ الاتِّعاظِ دَيْدَنُهم وشأنُهم[1]، ولذلكَ استحقّوا الذَّمَّ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالتَّذكيرِ:

العاقلُ يجعلُ الحقَّ نُصْبَ عينيهِ

عُبِّرَ بالتَّذكيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُكِّرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على حرصِ النَّبيِّ ﷺ على حملِ المشركينَ على النَّظرِ في دلائلِ الحقِّ؛ ليتَّعظوا بها، وينتفعوا بها، ويجعلوا الحقَّ نُصْبَ أعيُنِهم، بحيثُ لا يغيبُ عنها، ويذكُروا ما يغفلونَ عنهُ مِنْ قدرةِ اللّهِ تعالى عليهم، ومِنْ تنظيرِ حالِهم بحالِ الأممِ الَّتي أهلكَها اللّهُ[3].

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

النَّبيُّ يُؤدّي حقَّ البلاغِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيُناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ ﷺ يُؤدّي حقَّ البلاغِ والتَّذكيرِ، ولا يصرفُهُ عن ذلكَ صارفٌ.

سرُّ البناءِ للمفعولِ في الفعلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾:

المشركونَ لا ينفعُهم وعظُ الواعظينَ

بُنيَ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ للمفعولِ؛ للعلمِ بالفاعلِ، وهو النَّبيُّ ﷺ؛ إذ هو المُتولّي أمرَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ ﷻ، أو لإرادةِ التَّعميمِ، وعدمِ تعلُّقِ الغرضِ بذِكْرِ الفاعلِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ إصرارِهم على الكفرِ والإعراضِ، بحيثُ لا يتَّعظونَ بالوعظِ مِنْ أيِّ واعظٍ كانَ[4].

نكتةُ إطلاقِ التَّذكيرِ:

إعراضُ المشركينَ عن كلِّ عِظَةٍ

أُطلِقَ التَّذكيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُكِّرُواْ﴾، ولم يُذكَرْ لهُ مُتعلَّقٌ مُعيَّنٌ؛ إمّا لإرادةِ العمومِ، وأنَّهم إذا وُعِظوا بشيءٍ لا يتَّعظونَ بهِ أيًّا كانَ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

ويدخلُ في هذا دخولًا أوَّليًّا وعظُهم بما يدلُّ على ثبوتِ الحشرِ، وفي هذا ذَمٌّ شديدٌ لهُم بقسوةِ القلبِ، وأنَّ الوعظَ لا يعرفُ إلى قلوبِهم طريقًا، أو للعِلْمِ بالمُذكَّرِ بهِ مِنَ السّياقِ، أي: أنَّهم إذا ذُكِرَ لهُم ما يَدُلُّ على صحَّةِ الحشرِ؛ لا ينتفعونَ بهِ؛ لبلادتِهم وقِلَّةِ فكرِهم[1].

بلاغةُ المضارعِ المنفيِّ:

الوعظُ لا يعرفُ إلى قلوبِ المشركينَ سبيلًا

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ ذِكْرِ المشركينَ أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّهُ دَيْدَنُهم وعادتُهم[2]، وبمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ، وذلكَ أنَّ المضارعَ يدلُّ على الاستمرارِ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ.

براعةُ الكنايةِ:

التَّذكيرُ وعدمُهُ سواءٌ عندَ المشركينَ

نَفيُ الذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ كنايةٌ عن عدمِ نفعِ التَّذكيرِ في حقِّ المشركينَ؛ إذِ التَّذكيرُ لا ينفكُّ عنهُ الذِّكرُ، كما لا ينفكُّ الانكسارُ عن الكَسْرِ[3]، وعدمُ الانتفاعِ بسببِ فَرْطِ تعصُّبِهم وعنادِهم، فأُطلِقَ عدمُ الذِّكرِ على أثَرِ الفعلِ، أي: لا يحصلُ فيهِم أثرُ تَذَكُّرِ ما يُذكَّرونَ بهِ، وإنْ كانوا قد ذَكَروا ذلكَ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالذِّكرِ دونَ التَّذكُّرِ:

المشركونَ بعيدونَ عنِ التَّذكُّرِ مراحلَ

قيلَ: ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (لا يتذكَّرونَ)، معَ أنَّهُ أنسبُ بـ ﴿ذُكِّرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الأخفَّ لا يحصلُ منهُم، فالأشدُّ مِنْ بابٍ أولى.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ﴾:

إعراضُ المشركينَ عنْ كلِّ دلائلِ الحقِّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معطوفٌ على ما

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 75.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.

قبلَهُ[1]، ونُكتةُ هذا العطفِ: أنَّهُ لمّا ذُكِرَ إعراضُ المشركينَ عنِ المسموعِ؛ أُتبِعَهُ إعراضُهم عن المرئيِّ[2]، فأفادَ الكلامُ إعراضَهم عن جميعِ دلائلِ الحقِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

العنادُ رانَ على قلوبِ المشركينَ

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ ترتُّبَ سُخريتِهم على رؤيةِ دلائلِ الحقِّ أمرٌ دائمٌ، فكلَّما أبصروا شيئًا منها تعامَوْا عنهُ، بحيثُ لا يُرجَى منهُم الاعتبارُ والاستبصارُ؛ لأنَّ العِنادَ قد رانَ على قلوبِهم، وطمسَ على بصائرِهم، وجعلَ على أبصارِهم غِشاوةً، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

التَّعامي عن دلائلِ الحقِّ شأنُ المشركينَ

عُبِّرَ بـ (إذا) دونَ (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معَ أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ هنا أنَّ ترتُّبَ سُخريتِهم على رؤيةِ الآياتِ أمرٌ مقطوعٌ بهِ؛ لأنَّ عدمَ الاستبصارِ والاعتبارِ عادتُهم وشأنُهم، ولذلكَ استحقّوا الذَّمَّ والتَّوبيخَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي:

رؤيةُ المشركينَ دلائلَ الحقِّ ثابتةٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيُناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ رؤيتَهم لدلائلِ الحقِّ ثابتةٌ؛ إذ لا حائلَ بينَهم وبينَها، وهي في غايةِ الظُّهورِ، إلّا أنَّهم يمرّونَ عليها وهم عنها مُعرِضونَ.

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ءَايَةَ﴾:

تأييدُ النَّبيِّ بالعلاماتِ الدّالَّةِ على صِدْقِهِ

عُبِّرَ عن خوارقِ العاداتِ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا ﷺ بالآياتِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ لِما يُشيرُ إليهِ لفظُ الآيةِ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ مِنْ كونِها علامةً دالَّةً على صِدْقِهِ ﷺ فيما جاءَهم بهِ مِنْ عندِ ربِّهِ[1]، ومِنْ جملةِ ذلكَ: إثباتُ الحشرِ والقيامةِ كما هو مُقتضَى السّياقِ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ءَايَةً﴾:

تكذيبُ المشركينَ بجميعِ الآياتِ

تنكيرُ ﴿ءَايَةً﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ للعمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ الشَّرطِ تعُمُّ، أي: وإذا رأوْا أيَّ علامةٍ مِنَ العلاماتِ الدّالَّةِ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ يستسخرونَ.

فائدة صيغةِ الاستفعالِ:

إفراطُ المشركينَ في التَّكذيبِ والسُّخريةِ

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على مبالغةِ المشركينَ في السُّخريةِ؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تدلُّ على الطَّلبِ والتَّكلُّفِ، ولا طلبَ هنا، فيُرادُ لازمُهُ، وهو المبالغةُ في السُّخريةِ والاستهزاءِ؛ لأنَّ ما فُعِلَ بالطَّلبِ يقعُ على وجهِ المبالغةِ، أو للتَّنبيهِ على اجتماعِهم على السُّخريةِ، وأنَّهم كانوا يطلبُ بعضُهم مِنْ بعضٍ أنْ يسخرَ منها[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم؛ إذ يتعاونونَ على الإثمِ والعُدوانِ، وعلى ما فيهِ هلاكُهم، وعلى هذا الاحتمالِ تكونُ الصّيغةُ للطَّلبِ على حقيقتِها[3].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ:

ضَراوةُ المشركينَ في التَّكذيبِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ سخريةَ المشركينَ مُستمِرَّةٌ مُتجدِّدةٌ، فكلَّما أبصروا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

علامةً مِنْ علاماتِ الحقِّ جدَّدوا لها استهزاءً وسُخريةً وتكذيبًا[1]، وفي ذلكَ مِنْ بيانِ ضراوتِهم في الكفرِ والتَّكذيبِ والعنادِ ما لا يخفى.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

الكفرُ باللهِ أصلُ كلِّ القبائحِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ معطوفٌ على ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾[2]، فيُفيدُ العطفُ أنَّهم جمعوا بينَ السُّخريةِ ونعتِ الآيةِ بأنَّها سِحْرٌ عندَ رؤيتِها، أو معطوفٌ على ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾، فيُفيدُ وصفَهم للبعثِ بأنَّهُ سِحْرٌ[3]، وأيًّا ما كانَ فهو حكايةٌ لقبيحةٍ أُخرى مِنْ قبائحِهم المُتفرِّعةِ عن كفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم بالحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي:

قُبْحُ إنكارِ الآياتِ والبعثِ

جيءَ بفعلِ القولِ على صيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ القولِ المذكورِ في حقِّ الآياتِ، أو البعثِ ووقوعِهِ[4]، وفيهِ تنبيهٌ على قُبْحِ هذا القولِ وشناعتِهِ وإنْ صدرَ مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ الآياتِ ودلائلَ صحَّةِ البعثِ مِنَ الظُّهورِ والوضوحِ بمكانٍ هو في غايةِ البُعدِ عن الشُّكوكِ[5].

بلاغةُ القصرِ:

الحـقُّ باطـلٌ مَـخـضٌ عـنـدَ المشركينَ

القَصْرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، فقد قَصَروا المُشارَ إليهِ - وهو الآيةُ أو البعثُ - على الاتِّصافِ بكونِهِ سِحْرًا مُبينًا، لا يتجاوزُهُ إلى صفةٍ أُخرى، وهذا القَصْرُ يُشيرُ إلى ما في نفوسِهم مِنَ الكِبْرِ والعنادِ والتَّمسُّكِ بالباطلِ، وأنَّ احتمالَ حقّيَّةِ الآيةِ أو البعثِ لا يخطرُ لهُم ببالٍ، ولو طَيْفَ خيالٍ.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

علَّةُ تذكيرِ المُشارِ إليهِ:

الـحـقُّ مـاثـلٌ بـصـورةِ الـكـذبِ عندَ المشركينَ

إنْ كانَ المُشارُ إليهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هو البعثَ؛ فتذكيرُ اسمِ الإشارةِ ظاهرٌ[1]، وإنْ كانَ الآيةَ والمعجزةَ فالتَّذكيرُ بتأويلِ: ما يرونَهُ[2]، وأيًّا ما كانَ فالتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للمبالغةِ في تعيينِ المُكذَّبِ بهِ، بتنزيلِهِ منزلةَ المحسوسِ الحاضرِ.

نُكتةُ الإشارةِ للقريبِ:

احتقارُ المشركينَ للحقِّ وأهلِهِ

جيءَ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على احتقارِ المشركينَ للمُشارِ إليهِ، وهو الآيةُ أو البعثُ؛ إذ تكذيبُ الحقِّ والسُّخريةُ منهُ يُعبِّرانِ عمّا في نفوسِ المُكذِّبينَ مِنَ الاحتقارِ لهُ ولأتباعِهِ، وهذا هو شأنُ أعداءِ الحقِّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يلجؤونَ إلى ذلكَ عندَ إفلاسِهم ويأسِهم مِنْ دفعِ الحقِّ بالبراهينِ والحُجَجِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالسِّحْرِ:

تشويهُ أهلِ الباطلِ صورةَ الحقِّ وأهلِهِ

عُبِّرَ بالسِّحْرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لبيانِ شدَّةِ تلبيسِ المشركينَ على الحقِّ وأهلِهِ، وتشويههم للحقائقِ القطعيَّةِ اليقينيَّةِ، بإبرازِها في صورةِ أمورٍ وهميَّةٍ مُستقبَحةٍ، تقترنُ عادةً بالشَّرِّ والفسادِ، وغرضُهم مِنْ هذا الصَّنيعِ صدُّ النّاسِ عن اتِّباعها، والالتحاقِ برَكْبِ المؤمنينَ بها، وإظهارُ المؤمنينَ في صورةِ مَنْ ينخدعُ بالسِّحْرِ والتَّمويهِ، والمعنى: إنْ هذا إلّا خيالٌ وأمورٌ مُمَوَّهةٌ، لا حقائقَ لها[3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿سِحْرٌ﴾:

إدراجُ المشركينَ للحقِّ في جملةِ السِّحْرِ

تنكيرُ ﴿سِحْرٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ للإفرادِ، والمعنى: إنْ هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ السِّحْرِ، أو للنَّوعيَّةِ، أي: إنْ هذا إلّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.

نوعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْرِ، وأيًّا ما كانَ فالمشركونَ يرونَ المُشارَ إليهِ - وهو الآيةُ أو البعثُ - مُندرجًا في جملةِ السِّحْرِ، بحيثُ لا يمتازُ عنهُ بشيءٍ يجعلُهُ خارجًا عنْ جنسِهِ وحقيقتِهِ.

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

اختلالُ ميزانِ الحقِّ والباطلِ عندَ المشركينَ

وُصِفَ السِّحْرُ بكونِهِ مُبينًا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ وُثوقِ المشركينَ بكونِ ما جاءَهم بهِ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الآياتِ أو الإخبارِ بالبعثِ سِحْرًا، والمعنى: أنَّ كونَهُ سِحْرًا أمرٌ بيِّنٌ لا شُبْهةَ فيهِ لأحدٍ، ولا امتراءَ[1]، والكافرُ إذا خُتِمَ على سَمْعِهِ وقلبِهِ، وجُعِلَ على بصرِهِ غشاوةٌ؛ يرَى الباطلَ في صورةِ الحقِّ، ويرَى الحقَّ في صورةِ الباطلِ، ولا يُفرِّقُ بينَ المعجزةِ والسِّحْرِ.

بلاغةُ فصلِ ﴿أَءِذَا﴾:

قُصورُ نظرِ المشركينَ وغرقُهم في غفلتِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ تركَ العطفِ بالواوِ أنسبُ بتصديرِ الجملةِ بالاستفهامِ، ولأنَّهُ مَسوقٌ لبيانِ سببِ استبعادِهم للبعثِ والنُّشورِ بعدَ بيانِ استهزائِهم بالآياتِ وإنكارِهم للبعثِ، وهو سببٌ ناشئٌ عن غفلةٍ وقُصورِ نظرٍ.

بلاغةُ الاستفهامِ:

المشركونَ مكابرونَ معاندونَ

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ للإنكارِ والسُّخريةِ[2]، وفيهِ دلالةٌ على الاستبعادِ، وليسَ هو سؤالَ باحثٍ عنِ الحقِّ، طالبٍ لهُ؛ لأنَّ عادةَ المشركينَ هي العنادُ والمكابرةُ.

نُكتةُ تقديمِ (إذا):

شدَّةُ إنكارِ المشركينَ للبعثِ

العاملُ في (إذا) في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مُقدَّرٌ يدلُّ عليهِ ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، والتَّقديرُ: (أنُبْعَثُ إذا مِتْنا...

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 325، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 446.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 71.

إلخ)، وليسَ العاملُ ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ نفسَهُ؛ لأنَّ ما بعدَ (إنَّ) واللّام لا يعملُ فيما قبلَهُ، وتقديمُ (إذا) في الكلام بحسَبِ الظّاهرِ؛ لتقويةِ الإنكارِ للبعثِ بتوجيهِهِ إلى حالةٍ تُنافيهِ غايةَ المنافاةِ[1]، وللإشعارِ بأنَّ البعثَ في هذهِ الحالةِ - وهي حالةُ كونِهم أمواتًا وترابًا - أشدُّ إنكارًا. وهذا إذا كانَتْ (إذا) ظرفًا غيرَ مُتضمِّنٍ لمعنى الشَّرطِ، فإنْ جُعِلَتْ شرطيَّةً كانَ جوابُها عاملًا فيها، أي: أإذا متنا بُعِثْنا؟![2].

غرضُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

المشركونَ لا يُنكِرونَ الموتَ

إذا جُعِلَتْ (إذا) شرطيَّةً فالتَّعبيرُ بها دونَ (إنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لأنَّها تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ أنَّ المشركينَ جازمونَ بكونِهم سيموتونَ، ويصيرونَ ترابًا؛ لأنَّ إنكارَهم كانَ للبعثِ والنُّشورِ، لا للموتِ؛ إذ كانوا يقولونَ: إنَّ الدَّهرَ يُهلِكُهم.

دلالةُ صيغةِ الماضي:

الموتُ حقيقةٌ لا شكَّ فيها

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، والمشركونَ هنا قاطعونَ بموتِهم وصيرورتِهم ترابًا. وإنْ كانَتْ (إذا) ظرفًا غيرَ مُتضمِّنٍ لمعنى الشَّرطِ، فالتَّعبيرُ بالماضي للدّلالةِ على أنَّ حصولَ الموتِ والبِلى أمرٌ مقطوعٌ بهِ لِما تقدَّمَ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكُنَّا﴾:

التَّلاشي القويُّ سببُ إنكارِ المشركينَ للبعثِ

في عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ على قولِهِ: ﴿مِتْنَا﴾ تنصيصٌ على ما هو موجِبٌ عندَهم لشدَّةِ الإنكارِ، وهو التَّلاشي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 298.

القويُّ بكونِهم ترابًا وعظامًا، كأنَّهم جعلوا كلَّ واحدٍ مِنَ الموتِ والكونِ ترابًا وعظامًا، جعلوهُ مانعًا مِنَ البعثِ[1].

نُكتةُ تقديمِ التُّرابِ على العظامِ:

التُّرابُ أبعدُ عن الحياةِ مِنَ العظامِ

قُدِّمَ التُّرابُ على العظامِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لأنَّهُ أدلُّ على مُرادِهم؛ لأنَّهُ أبعدُ عن الحياةِ[2]، أو لأنَّهُ منقلبٌ مِنَ الأجزاءِ البادية[3]، أو لأنَّ كونَهم ترابًا معلومٌ بطريقِ العقلِ، وكونَهم عظامًا مُشاهَدٌ معلومٌ بطريقِ الحسِّ؛ فكانَ الثّاني أشدَّ وقعًا في الاستبعادِ عندَ العامَّةِ، فلذلكَ أُخِّرَ[4].

نُكتةُ تنكيرِ التُّرابِ والعظامِ:

حقارةُ شأنِ التُّرابِ والعظامِ

تنكيرُ ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ للتَّحقيرِ، أي: ترابًا وعظامًا حقيرَيِ الشَّأنِ، لا يُبالَى بهما، وذلكَ يلائمُ مقامَ استبعادِ البعثِ وإنكارِهِ.

نُكتةُ تكريرِ الاستفهامِ:

شدَّةُ شكيمةِ المشركينَ في إنكارِ البعثِ

تكريرُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ على قراءةِ مَنْ قرأ بهِ - وهم الجمهورُ - زيادةٌ في الإنكارِ، وتأكيدٌ لهُ[5]، ومبالغةٌ فيهِ، وإشعارٌ بأنَّ البعثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ؛ لإعادةِ همزةِ الإنكارِ معَهُ، وهو في هذهِ الحالةِ - وهي حالةُ موتِهم وصيرورتِهم ترابًا وعظامًا - أشدُّ استنكارًا[6].

نُكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ:

نفوسُ المشركينَ تأبَى الاعترافَ بالبعثِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ، واللّامِ، وإعادةِ أداةِ الإنكارِ - وهي الهمزةُ على قراءةِ مَنْ قرأ بها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204، واطفَيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 418.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 237.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

في الموضعين - تقويةً للإنكارِ، وتأييدًا لهُ، وتقديمُ الهمزةِ لاقتضائِها الصَّدارةَ، لا لأنَّ المرادَ إنكارُ التَّأكيدِ كما قد يُتوهَّمُ مِنْ ظاهرِ الكلامِ[1]، وفي تكثيرِ المُؤكِّداتِ إشارةٌ إلى أنَّ نفوسَ المشركينَ تقذفُ البعثَ عنها، وتأبَى أنْ يكونَ مُعتقَدًا لها، ولذلكَ حُشِدَتْ لها هذهِ المُؤكِّداتُ.

نُكتةُ العدولِ عن الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

الاسميَّةُ أنسبُ بزيادةِ الإنكارِ

أصلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾: أنُبْعَثُ إذا متْنا؟! فبدَّلوا الفعليَّةَ بالاسميَّةِ، وقدَّموا الظَّرفَ، وكرَّروا الهمزةَ؛ مبالغةً في الإنكارِ، لتكريرِ حرفِ الإنكارِ وتصديرِهِ والاسميَّةِ، وإشعارًا بأنَّ البعثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ، وهو في هذهِ الحالةِ أشدُّ استنكارًا[2].

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

ترقّي المشركينَ في استبعادِ البعثِ

قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وقالونُ والأصبهاني: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ بإسكانِ الواوِ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بفتحِها[3]. أمّا القراءةُ الأولى: فهي على أنَّ ﴿أَوَ﴾ حرفُ العطفِ المفيدُ للتَّرديدِ والتَّقسيمِ[4]، أي: أيُبْعَثُ واحدٌ منّا؟![5] ووجهُ العطفِ بـ ﴿أَوَ﴾ هو جَعْلُهم الآباءَ الأوَّلينَ قِسْمًا آخرَ، فكانَ عطفُهُ ارتقاءً في إظهارِ استحالةِ بعثِ هذا القِسْمِ[6]. وأمّا القراءةُ الثّانيةُ: فهي على أنَّ الواوَ واوُ العطفِ، والهمزةُ همزةُ استفهامٍ، فهما حرفانِ، وقُدِّمَتْ همزةُ الاستفهامِ على حرفِ العطفِ جريًا على الاستعمالِ الكثيرِ[7]، و(آباؤُنا) معطوفٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها، أو على الضَّميرِ المستترِ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 236.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.

والمعنى: أَيُبْعَثُ أيضًا آباؤُنا؟! وتكريرُ الاستفهامِ الإنكاريِّ لزيادةِ الاستبعادِ[1]. فجمعت القراءتان لمشركي مكة بين الإنكار والسخرية من الأقدار.

نُكْتةُ ذِكْرِ الآباءِ:

بَعْثُ الآباءِ أولى بالاستبعادِ عندَ المشركينَ

ذِكْرُ الآباءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لأنَّهم في زعمِ المشركينَ قد طالَتْ عصورُ فنائِهم، فتكونُ إعادةُ حياتِهم أوغلَ في الاستحالةِ[2]، والمشركونَ بذلكَ يترقَّوْنَ درجةً في الإنكارِ والاستبعادِ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾:

المشركونَ يستدلّونَ بحالِ آبائِهم

الإضافةُ في ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ للاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ المشركينَ يستبعِدونَ بعثَ آبائِهم المختصَّينَ بهِم؛ لأنَّهم أدرى بأحوالِهم وشؤونِهم وبمُدَّةِ موتِهم.

نُكْتةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

غُلوُّ المشركينَ في إنكارِ البعثِ

وَصَفَ المشركونَ آباءَهم بالأوَّلينَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لزيادةِ الاستبعادِ، أي: أَيُبْعَثُ آباؤُنا الأقدمونَ الَّذينَ طالَ مُكْثُهم في الأرضِ، وانمحقَتْ أجزاؤُهم، بحيثُ لم يبقَ لهُم أثرٌ ما، ومرَّتِ الدُّهورِ ولم يُبْعَثْ أحدٌ منهُم يومًا مِنَ الأيّامِ؟![3].

نُكْتةُ فصلِ ﴿قُلْ﴾:

مقامُ المُحاوَراتِ مقامُ فصلٍ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ جارٍ على طريقةِ الاستعمالِ في حكايةِ المُحاوَراتِ[4]؛ إذ يُفصَلُ قولُ كلِّ مُحاوِرٍ عن قولِ مُحاوِرِهِ.

دلالةُ فعلِ الأمرِ:

تبكيتُ المشركينَ بوقوعِ الحَشْرِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.
(2) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 418، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.

ولا صارفَ عنهُ، بل مقامُ تبكيتِ المُكذِّبينَ يستدعي الإجابةَ بهذا الجوابِ[1]، وفي ذِكرِ الأمرِ أيضًا تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّبليغِ، وليواجهَهم بما يُبكِّتُهم؛ ليكونَ ذلكَ في مقابلةِ تكذيبِهم لهُ.

بلاغةُ الاقتصارِ على ﴿نَعَمْ﴾:

البعثُ لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ لطافةٌ لا تخفى؛ وذلكَ بالاقتصارِ على ﴿نَعَمْ﴾ في الجوابِ، مِنْ غيرِ إقامةِ دليلٍ للمُنكرينَ؛ لأنَّهُ قد تقدَّمَ البرهانُ عليهِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الآية، ولأنَّ المُخبرَ عُلِمَ صدقُهُ بمعجزاتِهِ الواقعةِ في الخارجِ، الَّتي دلَّ عليها قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾، واستهزاؤُهم بها وتسميتُهم لها سِحْرًا لا يضرُّ طالبَ الحقِّ، ولذا أمرَهُ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿نَعَمْ﴾ دونَ زيادةٍ، والّا لم يكنْ جوابًا شافيًا[2].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

غايةُ السُّؤالِ عن البعثِ أنْ يكونَ مِنْ جاهلٍ لا مِنْ معاندٍ

الاستفهامُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ إنكاريٌّ كما سبقَ، ولذلكَ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ جوابًا لهُ على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، بصرفِ قَصْدِهم مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ إلى الاستفهامِ الحقيقيِّ، فجُعِلوا كالسّائلينَ حقيقةً: أيُبْعَثونَ؟ فقيلَ لهُم: نعمْ؛ تقريرًا للبعثِ المُستفهَمِ عنهُ، أي: نَعَمْ تُبْعَثونَ[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ هذا السُّؤالَ غايتُهُ أنْ يكونَ سؤالَ جاهلٍ طالبٍ للعِلْمِ، لا سؤالَ مكابرٍ معاندٍ.

بلاغةُ الجملةِ الحاليّةِ:

بعثُ المشركينَ مُتلبِّسٌ بالذُّلِّ والصَّغارِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، والعاملُ فيها محذوفٌ، والتَّقديرُ: نعم تُبْعَثونَ وأنتم داخرونَ[4]، ونُكتةُ الحالِ بيانُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 187.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96.

تلبُّسِ بعثِهم بذلِّهم وصَغارِهم، فلا يُكتفَى بوقوعِ ما ينكرونَ، بل يصحبُهُ ما فيهِ خِزْيُهم وبَهْتُهم.

بلاغةُ الإطنابِ:

تهديدُ المُنكِرينَ للبعثِ بسوءِ العاقبةِ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ زيادةٌ على الجوابِ؛ إذِ الظّاهرُ أنْ يُكتفَى بـ ﴿نَعَمْ﴾، وإنَّما زيدَ على الجوابِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إطنابٍ؛ للتَّشديدِ في الوعيدِ، والمبالغةِ في التَّهديدِ للمُخاطَبينَ[1]. ومِنْ عجيبِ بلاغةِ هذهِ الآيةِ أنَّهُ لم يُذكَرْ فيها دليلٌ للمُنكِرينَ كما تقدَّمَ، واقتُصِرَ على ﴿نَعَمْ﴾، وزيدَ فيها تهديدُهم بالذُّلِّ والصَّغارِ، كأنَّهُ قيلَ: لا تطلُبوا دليلًا على البعثِ؛ فالأدلَّةُ كثيرةٌ، واحذروا ما ينتظرُكم عندَ وقوعِهِ.

بلاغةُ التَّغليبِ:

الخطابُ لِلمُنكِرينَ وآبائِهم

الخطابُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ لهُم ولآبائِهم بطريقِ التَّغليبِ[2]، أو الخطابُ لِمَنْ عَلِمَ اللّهُ تعالى أنَّهم يموتونَ على الكفرِ، أو هو مُقيَّدٌ، أي: وأنتم داخرونَ إنْ بَقيتُم على هذهِ الحالةِ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ:

قَزعُ العصا للمُنكِرينَ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (داخرينَ)؛ لِما تدلُّ عليهِ الاسميَّةُ مِنْ أنَّ كونَهم داخرينَ أمرٌ ثابتٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ، إنْ بَقوا على ما هم عليهِ مِنَ التَّكذيبِ، وفي ذلكَ تهويلٌ للخَطْبِ، وتفظيعٌ لهُ، عسَى أنْ يرتدعوا عمّا هم عليهِ مِنَ التَّكذيبِ والعنادِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالدُّخورِ:

الكرامةُ يومَ القيامةِ لأهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ

عُبِّرَ بالدُّخورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على ما

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 238.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 187، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 238.

يصيبُ المُخاطَبينَ عندَ البعثِ مِنَ الصَّغارِ والذِّلَّةِ والاستكانةِ[1]؛ لأنَّهم يرونَ ما أنكروهُ واقعًا[2]، أي: تُبْعَثونَ بَعْثَ إهانةٍ مُؤذِنةٍ بترقُّبِ العقابِ، لا بَعْثَ كرامةٍ[3]؛ لأنَّ الكرامةَ حينَئذٍ خاصَّةٌ بأهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ، الَّذينَ عَمَرَ قلوبَهم الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ.

دلالة استعمال اسمِ الفاعلِ ﴿دَاخِرُونَ﴾:

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿دَاخِرُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رُسوخِ المُخاطَبينَ في الذُّلِّ والصَّغارِ، حتَّى صارَ ذلكَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تنفكُّ عنهُم، ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ إذ يستقبلونَ اليومَ الَّذي كانوا يُنكِرونَهُ، وهم على هذا الحالِ الفظيعِ، المُؤذِنِ بطولِ الوَيْلِ والثُّبورِ.

رُسوخُ المعاندينَ في الذُّلِّ والصَّغارِ يومَ القيامةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستفتاءُ والسُّؤالُ:

الاستفتاءُ: طَلَبُ جوابٍ عمّا يُشكِلُ على المُستفتي[4]. والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤدّي إليها. وقد عُبِّرَ بالاستفتاءِ هنا؛ لأنَّ المرادَ بهِ الاستخبارُ عن أمرٍ حدثَ[5]، وطَلَبُ الإجابةِ عن المسؤولِ عنهُ، وهو تعيينُ الأشدِّ خَلْقًا، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ قضيَّةَ البعثِ لكثرةِ الكلامِ فيها قد صارَتْ بمنزلةِ الشَّيءِ المُشكِلِ، الَّذي يُطلَبُ بيانُ إزالةِ الإشكالِ المُتعلِّقِ بهِ، وإنْ لم يكنِ البعثُ مُشكِلًا في نفسِهِ لظهورِ أدلَّتِهِ.

البعثُ قضيَّةٌ مُشكِلةٌ

السُّخريةُ والاستهزاءُ:

الاستهزاءُ والسُّخريةُ كلٌّ منهما فيهِ استخفافٌ وهَمْزٌ، والفرقُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 72.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتي).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262.

بينَهما: أنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يَسبِقَ منهُ فعلٌ يُستهزَأُ بهِ مِنْ أجلِهِ، وأمّا السُّخريَةُ فتدلُّ على فعلٍ يَسبِقُ مِنَ المسخورِ منهُ[1].

المشركونَ يطلبونَ قَهْرَ أهلِ الحقِّ

وقد عُبِّرَ بالسُّخريةِ هنا؛ لأنَّها وقعَتْ في مقابلةِ الإخبارِ بالحقِّ، ولدلالتِها بحسَبِ أصلِ معناها على الذُّلِّ والقَهْرِ، وكأنَّ السّاخرَ يبغي قَهْرَ المسخورِ منهُ وإذلالَهُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»